محاضرة: التجارب التعليمية الناجحة

مقدمة

لا شك أن التعليم أساس نهضة الشعوب، به نشأت الحضارات وتقدمت حياة البشر في شتى المجالات فلا سبيل لبناء مجتمع متقدم وراق يسوده الأمن والسلام إلا بالعلم. وتتجسد أهمية التعليم في غرس القيم الثقافية والاجتماعية والوطنية في أفراد المجتمع كما يؤثر في تحسين ظروف الحياة المختلفة من خلال تطوير القدرات والكفاءات والمؤهلات لدى الأفراد بما يتماشى مع متطلبات سوق العمل. من خلال هذه المحاضرة سنتناول أهم التجارب التعليمية الناجحة في العالم، مستندين إلى معايير التصنيف الدولية التي خضعت إليها. مع تسليط الضوء على أهم الآليات والاستراتيجيات التي اتبعتها هذه الدول لتحافظ على الصدارة.

1-معايير التصنيف الدولي في التعليم

يتم تقييم أفضل دول العالم في مجال التعليم من خلال بعض المعايير والمقاييس الهامة، والتي من أهمها هو نسبة المتعلمين من البالغين وأيضا معدل الالتحاق في المراحل الابتدائية والثانوية وعدد السنوات التي تقضيها المرأة في المراحل التعليمية.

وطبقا لتقرير مؤشر بيرسون للتعليم والمهارات المعرفية والتحصيل التعليمي العالمي؛ وهو الذي بدوره اعتمد تحديد أفضلية الدول بناءً على عدة اختبارات دولية منها:

- اختبار مدى التقدم في القراءة والكتابة الدولي (بيرلز).
- اختبار الاتجاهات الدولية في الرياضيات والعلوم (تيمس).
- اختبارات برنامج التقويم الدولي للطلبة (بيزا).

وقد جاء ترتيب الدول العشر الأوائل على النحو الاتي: كوريا الجنوبية أولاً، اليابان في المركز الثاني، تلتها سنغافورة في المركز الثالث، وهونغ كونغ في المركز الرابع، أما فنلندا فقد تراجعت إلى المركز الخامس بعد أن كانت متقدمة في الأعوام السابقة، وجاءت في المركز السادس المملكة المتحدة، وأعقبتها كندا في المركز السابع، ومن ثم هولندا في المركز الثامن، ومن بعدها آيرلندا التي تبوّأت المركز التاسع، وفي المركز العاشر جاءت بولندا.

2–أهم الأنظمة التعليمية المتقدمة عالميا

أ. فنلندا

تحتل فنلندا مركز الصدارة، أو أحد المراكز الأولى، في كافة دراسات بيسا (PISA)، والتي تنظمها منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) كل ثلاثة أعوام منذ عام 2000. ويقيس برنامج بيسا (PISA) قدرات الطلاب البالغين 15 عامًا من العمر في إجادة الرياضيات والعلوم والقراءة. ومن الجدير بالملاحظة أن الفروق بين الحاصلين على أعلى الدرجات والحاصلين على أقلها، من بين الطلاب الفنلنديين، ضئيلة، وأن مستويات القدرات عالية في جميع أنواع المدارس.

ويعتبر تقدم المجتمع الفنلنديّ إلى الصفوف الأولى بين أغنى دول العالم خلال النصف الثاني من القرن العشرين، ثمرة سعي مواطنيها للحصول على التعليم العام، ولاستثمار الدولة في مجال التعليم كذلك حتى أصبحت فنلندا مثالاً يحتذى بين جميع بلدان العالم في كيفية بناء نظام تعليمي فائق الفعالية، بأقل عدد من أيام وساعات الدوام المدرسي السنوية. بإنفاق ما بين 11 و12% من الميزانية العامة للدولة وميزانيات البلديات الفنلندية على التعليم. يغطي التعليم المجانيّ قبل المدرسيّ، والتعليم الأساسيّ، والتعليم الثانويّ، والتعليم الفنيّ، والتعليم العالي، والتعليم المستمر، والدراسات العليا، كما تموّل بصورة جزئية التعليم الحرّ للكبار. ويشكل هذا بدوره العمود الفقريّ للتعلم المستمر مدى الحياة، المتاح لجميع مَن يعيشون في فنلندا. ومن أهم ما يميز سياستها التعليمية:

- لا يتجاوز أي فصل في فنلندا 20 طالبا، ويبلغ عدد ساعات الدراسة اليومية من 4 إلى 7 ساعات، عدد أيام الدوام المدرسي 190 يوماً في العام الدراسي.
- المعلم في أي صف مدرسي يجب أن يكون مؤهلاً جامعياً وحاصلاً على درجة الماجستير، وهذا يعني أن كفاءة التعليم لا تتحقق بدون مدرس كفء. حيث أنهم يقضون أربع ساعات فقط بالفصول الدراسية يوميا، بينما يتم تخصص ساعتين أسبوعيا لتنمية المهارات. ويتم اختبار المدرسين من الـ 10% الأفضل بين الخريجين. يبدأ راتب المعلم الفنلندي من حوالي 30 ألف دولار، ويحصل المعلمون على نفس درجة الأطباء والمحامين.
- يبدأ الطفل مرحلة التعليم في سن السابعة، ممضياً سنوات الروضة بنظام خاص لا يوجد فيها تعليم مباشر، وتقوم فلسفة ذلك على أن الصغار يكتسبون المعرفة بشكل أفضل عن طريق اللعب. حتى أن تلاميذ المدارس الابتدائية يحصلون على 75 دقيقة راحة بين الحصص الدراسية.

- الطلاب يأخذون دروسا في الفن والموسيقى والطبخ والنجارة والحدادة والمنسوجات. يختار الطالب عدد السنوات التي تناسبه لإتمام التعليم تتراوح بين عامين و4 أعوام، ويتم منح المدارس الحرية الكاملة في اختيار نوعية الكتب المستخدمة طالما تلتزم بالإطار العام الذي حددته الوزارة.

- لا توجد دروس خصوصية بعد المدرسة. إذ يتم إحضار مدرس إضافي لمساعدة أولئك الذين يجدون صعوبة في موضوع معين.

- لا توجد اختبارات عامة للطلبة خلال السنوات التسع الأولى، حيث لا يوجد سوى اختبار إلزامي موحد في جميع أنحاء فنلندا، يتم عقده مع سن السادسة عشر. فيما يتم تقييم الأداء بناءً على اختيار 10% من كل شريحة عمرية لإجراء الاختبارات عليها، وتحتفظ المدارس بالنتائج بكل سرية. كما أنه لا يسمح قانونياً بوضع درجات للطلبة، ولا يسمح بالمقارنة بينهم، فالمعلمون يضعون اختباراتهم الخاصة، ولا يأخذونها من مؤسسات خارج المدرسة، ولا تقارن المدارس مع بعضها، حيث تبقى النتائج سرية حتى يطلبها مجلس التعليم الوطني لغرض تحسين التعليم.

- ما يزيد عن 66% من الطلاب يلتحقون بالجامعة و93 % من الفنلنديين حاصلون على المدرسة الثانوية العليا.

يمكن أن نلخص العوامل التي جعلت التعليم الفنلندي الأفضل عالميا:

في أنه تعليم متاح للجميع، يُعتمد فيه تأطير معلمين على درجةٍ عاليةٍ من الكفاءة والالتزام في جميع المراحل الدراسية، التركيز على النشاط الطلابي والتفاعل مع المدرسين والطلاب الآخرين والمجتمع المدرسي بأكمله. وهنالك تركيز خاص على مناهج العمل وبيئات التعلم التي تتمحور حول الطلبة، إضافة إلى اعتماد المرونة والثقة حيث تستند الإدارة إلى مبدأ "التوجيه المركزي – التنفيذ المحلي"، على الرغم من أن التوجيه يجري من خلال التشريعات والمنهج الوطني الأساسي والتخطيط الحكومي الشامل.

2. اليابان

يعد التعليم في اليابان خدمة وطنية عامة وواجباً قومياً يتجاوز أي جهد فردي أو فئوي خاص، وأنه في مناهجه ومقرراته وتوجيهاته يمثل عامل التوحيد الأهم لعقل الأمة وضميرها منذ مراحل التعليم الإلزامية الأولى، إذ لا يسمح فيه بتعددية المناهج والفلسفات التربوية. حيث لم تأخذ اليابان بالنزعات الليبرالية

والسيكولوجية الغربية بل ظلت متمسكة بقيم الانضباط الموحَّد في الفكر والسلوك رغم الضغط المعاكس والنقد الغربي لها. يستمد النظام التربوي الياباني أهم مقوماته من طبيعة مجتمعه وروح أمته واحتياجات وطنه، من جذوره ومؤسساته وتقاليده المتأصلة والقائمة بالفعل ولم يدمرها أو يهملها بدعوى قدمها وتقليديتها، ولا يأتي انعكاساً لنماذج تربوية خارجية.

ينقسم نظام التعليم في اليابان بشكلٍ أساسي إلى أربع مراحل هي:

- مرحلة التعليم الابتدائي والتي تتكون من 6 سنوات،
- بعد ذلك ينتقل الطالب إلى مرحلة التعليم المتوسط والتي تتكون من 3 سنوات،
- تليها مرحلة التعليم الثانوي المكونة من 3 سنوات،
- وأخيرًا تأتي مرحلة التعليم العالي، والتي تنقسم إلى التعليم الجامعي المكون من 4 سنوات، أو التعليم المتوسط المكون من سنتين.

يبدأ الطفل مسيرة الدراسة في المرحلة الإلزامية عندما يُكمِل أعوامه الست الأولى حيث يلتحق بإحدى المدارس الابتدائية؛ ليُعد وُيهيَّأ من خلال تعليمه كلًا من: اللغة اليابانية، العلوم الاجتماعية، الرياضيات، العلوم، الموسيقى، الفنون، الحرف اليدوية، وصولًا إلى التدبير المنزلي والتربية البدنية. كما يقوم الطالب أيضاً بحضور صفٍّ أسبوعي عن التربية الأخلاقية، التي تعد جُزءًا رئيساً من نظام التعليم في اليابان الذي يهدف إلى إنتاج طالب متكامل من جميع الجوانب. بعد ذلك ينتقل الطالب بشكل رئيس إلى مرحلة التعليم المتوسط حيث يقوم بدراسة نفس التخصصات السابقة، لكن بشكل أكثر تطورًا، ومُضافاً إليها اللغة الإنجليزية، الرّحلات الميدانية، والنوادي الصيفية، كي ينتقل بدوره إلى مرحلة التعليم الثانوي التي يتم إعداده فيها بشكل صارم وحاسم للذهاب إلى التعليم العالي سواء الجامعي أو المتوسط.

أهم ملامح وخصائص النظام التعليمي اليابان

-استطاعت اليابان أن تجمع بين شعبية التعليم ونخبويته العلمية الفكرية، بمعنى أن التعليم أتيح للجميع في قاعدة الهرم التربوي لتزويد الأمة بالأيدي العاملة المتعلمة لكنه اقتصر في مستوى القمة على القلة المتميزة عقلياً والمتفوقة في مواهبها لتخريج النخبة القيادية والقادرة على مواجهة التحديات.

-من المعروف أنه لا يمكن لأمة أن تبدع علمياً إلا بلغتها الأم، ولا يستمع العالم لأمة تتحدث بلغة غيرها. لذا لم تنبهر اليابان باللغات الأجنبية المتقدمة، وحسمت معركة اللغة تعليمياً وحياتياً منذ البداية.

-يوفّق النظامُ التربويُّ الياباني بين مركزية التوجيه ولامركزية التنفيذ في معادلة متوازنة.

-تعد مهنة التدريس من المهن المربحة اقتصادياً، فمن بين كل خمسة يابانيين يتقدمون لمهنة التدريس يفوز واحدٌ منهم فقط بشرف المهنة وامتيازاتها المعيشية. وقد أدى استقطاب النخبة الممتازة لهذه المهنة إلى الحفاظ على مستوى نوعي متفوق للتعليم الياباني، أدى بدوره إلى تنمية نوعية العملية التربوية بأسرها.

-يتبع نظام التعليم في اليابان مسار 3.3.6، ويركز على منهج التعلم الذي يعتمد على العمل الجماعي وحل المشكلات بدلاً من التعليم المباشر، ويتعلم الطلبة مناهج دراسية تتعلق بالرياضيات، والعلوم، وعلم الأخلاق لدرجة توازي مناهج الأخلاق العلومَ الأكاديمية؛ مما انعكس إيجاباً على سلوكيات الأفراد في المجتمع.

-وتتوقف سمعة المدرسة على أدائها الأكاديمي والسلوكي؛ فعلى سبيل المثال إذا ما قام أحد الطلبة بتجاوز القانون، فيتوجب على المعلم المشرف والهيئة التعليمية في المدرسة تقديم اعتذار رسمي للسلطات، ويرى بعض المحللين أن من أهم ميزات نظام التعليم الياباني قدرته على تأسيس جيل قوي يخضع لمؤسسة تعليمية قوية، ويحد من المشكلات التي تعاني منها أي مجتمع.

3. سنغافورة

تعد تجربة التعليم في سنغافورة من التجارب الرائدة وهي تجربة راقية ومميزة حيث خصصت الدولة 20% من الموازنة السنوية للتعليم وتدعم كل من التعليم الحكومي والخاص وأن التعليم إلزامي للأطفال يهدف إلى بناء شخصية الطفل واكتساب المهارات وكذلك تنمية المواهب لديهم وتطوير قدراتهم لتمكينهم من المشاركة بقوة في سوق العمل.

خضع النظام السنغافوري للعديد من حركات الإصلاح وكان أبرزها في عام 1997 حين أطلقت الحكومة حركة إصلاحية عرفت باسم (الأنموذج المركز على القدرة)؛ من أجل إنشاء مدارس جديدة عرفت بـ(مدارس التفكير). وركز هذا الأنموذج على أربعة محاور، هي: الاستناد إلى نوعية جيدة من المعلمين، واستقلال المدارس، وإلغاء نظام التفتيش، وتقسيم المدارس على أربع مجموعات. وفي عام 2006 طبقت سنغافورة الحركة الرابعة من الإصلاحات تحت نظام جديد عرف بـ (تعليم أقل، تعلم أكثر)؛ وبفضل هذين النظامين حققت سنغافورة نجاحاً باهراً في الامتحانات الدولية واحتلت مراكز متقدمة بين الدول.

تملك سنغافورة نظاماً يتبع مسار 2.2.6، حيث يلتحق الأطفال بالمرحلة الابتدائية في عمر 7 سنوات، وتنقسم المرحلة الابتدائية إلى مرحلتين، الأولى من الصف الأول للصف الرابع، والثانية من الخامس إلى السادس، في المرحلة الأولى أو مرحلة التأسيس، يتم تدريس اللغة الإنجليزية لكل الطلاب، وكذلك اللغة الأم، كما يتم تدريس الرياضة والعلوم، وكذلك عدد من الفنون والحرف اليدوية والموسيقى، ويتم إعطاء كورسات في التثقيف الصحي، والرياضيات. يلتحق بعدها مباشرة بالمرحلة الثانوية المتوسطة، حيث يكون للطالب مطلق الحرية في الاختيار بين المدارس الثانوية العليا الحكومية أو الخاصة أو أحد البرامج التعليمية الأخرى، حيث يكون الخيار أمامه متاحاً ليدرس ما يريد وفقاً لاهتماماته، وبذلك يكون النظام قائماً على أن يدرس الطالب ما يحبه وما يقع ضمن اهتماماته، وبعد إنهاء هذه المرحلة، فالتعليم ما بعد الثانوي متنوع أيضاً بين الجامعات والمعاهد التقنية والفنية وغيرها.

أهم ملامح وخصائص النظام التعليمي في سنغافورة

1. اكتشاف مواهب الطلاب وتنميتها

- يتمحور هذا الهدف على اكتشاف مواهب كل طالب على حدة، ثم يتم اختيار برنامج تعليمي له يهدف إلى تنمية هذه الموهبة للوصول إلى ذروتها، وخلق حلقة من الشغف والحب تظل ملازمة للطلاب طوال حياتهم لتطوير مواهبهم.
- يلعب الآباء دورًا مهماً في متابعة أطفالهم في مرحلة ما قبل الدراسة والتعرف إلى ميولهم واهتماماتهم في تلك المرحلة، وبناءً عليه يتم اختيار المدرسة المناسبة التي تساعدهم على تنمية هذه المهارات.
- حرية اختيار الطالب لدراسة ما يريد في المرحلة الثانوية.

2. تنمية مهارات التفكير النقدي

- تعدّ تجربة سنغافورة في مجال تنمية مهارات التفكير النقدي نموذجاً ينبغي التوقف عنده، حيث أصبح تعليم التفكير ركيزة أساسية لإصلاح التعليم وتطويره وهدفاً أساسياً من أهدافه، وقد قامت سنغافورة بوضع خطط هذا النوع من التعليم بما تبلور من اتجاهات تربوية واستُحدِثَ من استراتيجيات تعليمية في مجال تعليم التفكير النقدي وتنمية مهاراته.

3. تطوير نظام التعليم العالي

نظام التعليم في سنغافورة متقدم للغاية، ولكنه أيضاً انتقائي بدرجة كبيرة، حيث إن أقل من 25 % من الطلبة يستطيعون الوصول إلى الجامعة. كما أن الميزتين الأساسيتين للتعليم العالي في سنغافورة هما: الانتقاء والجودة. حيث إن الانضمام إلى الجامعة يخضع لانتقاء عالٍ، يضاف إلى ذلك كون الجامعات السنغافورية مصنفة بين أفضل الجامعات في آسيا والعالم. ومن جهة أخرى، تجذب جامعات سنغافورة في كل سنة عدداً كبيرًا من الطلبة الأجانب في مختلف التخصصات الجامعية.

4. الاهتمام بالأدوات والتكنولوجيات التعليمية الحديثة

تبنّت وزارة التعليم السنغافورية بالتعاون مع مجلس الحاسوب الوطني (National Computer board, NCB) مشروع ربط المدارس بشبكة الإنترنت. وكان الهدف هو توفير مصادر المعلومات للمدارس. ففي عام 1993 بدأ المشروع بست مدارس. وقد قادت التجربة إلى ربط المدارس والمشرفين على التعليم بالشبكة. بعد ذلك توسَّعَ المشروع ليكفل جميع المدراس. كما وضعت خطة باسم (تقنية المعلومات) لجعل سنغافورة جزيرة الذكاء. ولتحقيق ذلك تبنّت وزارة التعليم خطة استراتيجية لنشر تقنية المعلومات من خلال التعليم.

5. الجودة والانتقاء في اختيار وتأهيل المعلّمين

يُعدُّ المعلم السنغافوري أهم ركيزة في العملية التعليمية وتبذل الدولة قصارى جهدها لدعم المعلمين وتقدير جهودهم من أجل الحصول على تعليم ذي جودة عالية في المدارس. ومن ثم تسعى الدولة إلى النهوض بمعلميها، والتطلّع إلى الارتقاء بهم، وتلبية مطالبهم المادية والمعنوية، وحاجاتهم المهنية، في سبيل الحصول على أفضل ما عندهم من عطاءات، معرفية، ومهارية، ووجدانية.